الدولة العربية الآفلة بأي أرض تموت؟!

كتاب جديد عن فكر برهان غليون حول الدولة العربية الراهنة وأسئلة عن نهاية الاستبداد

القاهرة ـ «القدس العربي» ـ محمود قرني:

أوقاتنا كلها تبدو ملائمة للحديث عن الدولة العربية التي باتت في «مهب الريح» حسب تعبير الباحث والكاتب المغربي «عبدالسلام طويل» الذي قدم أطروحة باذخة في هذا الإطار، تحت عنوان: «الدولة العربية في مهب الريح»، «دراسة في الفكر السياسي عند برهان غليون»، وأهمية الدراسة لا تتأتى ـ فحسب ـ من القدرة والدقة اللتين عالج بهما «الطويل» موضوعه، بل تتأتى من ذلك التوقيت الصارم والدقيق الذي تتبدى فيه الأمة العربية أحوج ما تكون إلى إعادة النظر في الأسس التي قامت عليها، وكيفية معالجاتها سواء كان ذلك يتعلق بأبعادها الثقافية والمعرفية أو يتعلق بالبنيات الاجتماعية التي تخلفت عنها، لذلك أهم فصول الكتاب ـ في نظري ـ تلك الفصول التي تناولت مشروعية الدولة وأزمة الديمقراطية ومحدداتها، وكذلك ما قدمه عبدالسلام الطويل فيما يتعلق بظاهرة الاستبداد، بالاضافة ـ طبعا ـ الى القراءة المعمقة لجدل العلاقة بين الدين والسياسة، ومأزق العلمانية كبديل ديمقراطي وكذلك الموقف من الحركة الإسلامية، وتلك الاشارة لا تنكر ـ بالقطع ـ الأهمية البالغة التي تنعقد على الفصل التمهيدي والفصل الأول للأطروحة حول اشكالية التحديث السياسي في الفكر العربي المعاصر، وهو الفصل الذي تناول مفهوم الحداثة من وجوه مختلفة لكنه ذلك التناول المجرد الذي يحيل الى العمل النظري المحض، وكذلك الفصل الأول الذي تناول فيه الطويل إشكالية الحداثة والموقف من التراث عند برهان غليون.

ومنذ مقدمته في الفصل التمهيدي يشير الطويل الى ان ثمة إجماعاً ينعقد على اعتبار الاستبداد بكل أشكاله جرثومة التخلف، وإن تعددت الرؤى حول كيفية معالجة هذا الاستبداد عند الفرق المختلفة.

كما يشي الباحث نفسه، الذي يستعرض مفهوم الحداثة في بعده الغربي وكيف استقبلته النخبة العربية بسجالاتها الواسعة التي دارت حوله، ثم يفرق ايضا بين الحداثة والتحديث ويعود في هذه التفرقة الى عدد من أبرز الأسماء العربية والاجنبية ويقول: «الملاحظ أن التمييز بين الحداثة والتحديث يكاد يلازم كل الدراسات الجادة في حقل الثقافتين العربية والغربية رغم ما يعتريه من تباين وغموض وعدم تحديد، فمحمد أركون يعتبر أن هذا التفريق بين الحداثة والتحديث لازم وضروري لأنهما يحيلان الى مصطلحين غير متطابقين فالحداثة هي موقف للروح امام مشكلة المعرفة انها موقف للروح من كل المناهج التي يستخدمها العقل للتوصل الى معرفة ملموسة للواقع، أما التحديث فهو مجرد ادخال آخر المخترعات الاستهلاكية واجراء تحديث شكلي أو خارجي لا يرافقه أي تغير جذري في موقف المسلم من الكون والعالم»، ثم يتناول الباحث جدلية المفهوم نفسه لدى هشام شرابي ورشيد العلمي وآلن تورين ومارشال برمان يورجن هابرماس، ثم يتناول الخصائص الكبرى للحداثة والتحديث فعلى المستوى التحديثي السياسي يرى عبدالسلام الطويل أن الحداثة هي انتقال بالهياكل السياسية الى نوع من العصرنة أو «عقلنة السلطة» حسب تعبيره، ويرى الطويل أن ذلك يعني تحديد الوظائف الأساسية للدولة وبناها عبر نظم الإدارة وتوزيع مسؤولياتها كذلك يضيف عنصر توسيع المشاركة السياسية كأحد شروط التحديث السياسي لكنه يتوقف مليا أمام بعض دعاة التحديث الغربي لا سيما صمويل هنتنغتون بسبب تجاوزه مفهوم ماركس حول الوعي الطبقي الى توسيع رقعة هذا الوعي ليتقاطع مع فئات من طبقات مختلفة. ويتناول ايضا الحداثة وما بعد الحداثة، ويشير بداية الى ذلك الغموض والتشوش غير اليسيرين اللذين يحيطان بمفهوم ما بعد الحداثة لكنه ينقل لنا أهم تلك الخصائص التي تميزها فيما يتعلق بردتها عن الحداثة وانطوائها ـ حسب تعبيره ـ على تيار فلسفي ما بعد بنيوي ظهر في فرنسا، ثم يتناول المؤلف السياق التاريخي للحداثة، ثم يخص الحداثة العربية بجانب غير يسير من حديثه.

الحداثة العربية.. تراجع وانحسار

يشير الباحث عبدالسلام الطويل الى ان الوطن العربي دخل مرحلة الحداثة بنفس الشروط التاريخية التي كانت عليها أوروبا ويرى أن مصر ربما ـ كنموذج ـ كانت أفضل من أوروبا، وهو الأمر الذي جعل عددا من المؤرخين ـ حسب الطويل ـ يؤكدون أن الطبقة الوسطى العربية كانت بصدد انجاز مشروعها الخاص والمستقل للنهضة والتصنيع والتحديث. ويضيف الطويل «ان اوروبا ـ على النقيض ـ حققت حداثتها بعد تعميم الصناعة ونشر التعليم وقيم العقلانية والتنوير ونظمت إرادات شعوبها ومصائرها ضمن كيانات قومية موحدة على أسس موضوعية وأشاعت مبادىء العلاقات الديمقراطية بالمساواة أمام القانون وضمان حقوق المواطنة والحريات الشخصية والعامة الى آخر ما يذكره الباحث في هذا السياق الذي يستفيض في شرح أسباب انجاز أوروبا لمشروعها الحداثي، ثم يعود الطويل ليشرح الظاهرة الاستعمارية التي أدخلت الاقطار العربية في سياق مختلف، فقدت فيه أدنى قدرة على تجديد مستقبلها، ويقول: أرغمت ـ يقصد تلك الدول المستعمرة بفتح الميم ـ على الدخول في سياق تاريخ محكوم بمجموعة من الثنائيات المفروضة من خارج سياق تطورها الذاتي: تاريخ التقليد في مواجهة التحديث، والتخلف في مواجهة الغرب والاستبداد في مواجهة الديمقراطية، لكن الطويل يعود فيقرر أن انتصار حركات التحرر الوطني بعد حقبة الاستعمار منحت الشعوب أملا في امتلاك المستقبل، ثم يعود ويقول ان شيئا من مشكلات الوطن العربي لم يحل رغم تغير الكثير من البنى في العالم العربي، ويرجع السبب في ذلك ـ حسبما يذكره الطويل ـ الى ان النهضة الصناعية في الغرب استطاعت ان تحمل معها نمطا جديدا من أنماط الانتاج وبالتالي أنماط التفكير والتنظيم الاجتماعيين، وهي حالة لم تكن تعرفها المجتمعات العربية لأنها نابعة من تاريخ مفارق لها، ويضيف الطويل: كما كان للمجتمعات العربية أنماط وبنى اجتماعية وتنظيمات ومنظومات من القيم وقواعد السلوك والتفكير مغايرة نابعة من تاريخها الخاص ومتميزة عما كانت تتمتع به أوروبا ايضا بحيث لم يكن من الممكن لهذه المجتمعات التي وجدت في موضع البلدان المغلوبة أن تنفي هويتها وثقافتها وشروط تشكلها التاريخي، وتأخذ بالتالي بالأنماط الجديدة بالسهولة، والمرونة المفترضة».

الحداثة «الغليونية»

في فصل بعنوان «إشكالية الحداثة والموقف من التراث عند برهان غليون» يشير الباحث الى ان غليون خطا خطوة بعيدة عن فكرة انتقاد التراث والتقليد والدين وغيرها من اسباب، واستخدم منهجه الشهير «الاجتماعيات التاريخية».

ويوضح الطويل آليات عمل هذا المنهج من خلال مرجعية يقول انها تعود الى اعتقاد غليون بأن التطور التاريخي العام للإنسانية يقتضي تحسين تصور منهجي يسمح برؤية التفاعل العميق في تاريخ التطور الخاص والعام في مختلف الجماعات والثقافات، والخروج من ضيق المجتمع الى رحابة التاريخ الاجتماعي الذي ينظر الى المجتمعات باعتبارها تجسيدات لنظم حضارية، ويوضح الطويل مستطردا أن غليون قدم ثلاثة مفاهيم إجرائية هي الحضارة والمدنية والثقافة. أما مفهوم الحضارة لدى غليون فيعني ـ حسب الطويل ـ المكتسب الانساني الشامل الذي يمكن تعميمه على جميع الثقافات بينما يعبر مفهوم المدنية عن هوية الجماعة الثقافية باعتباره مولدا لمجمل المبادىء العقلية والمادية وشبكات التواصل التي تقوم عليها الجماعات وتتجدد ثم يتناول الباحث مفهوم الحداثة والتحديث عبر تعبير غليون «الدولة التحديثية»، وكذلك مفهوم النهضة أو التقدم، ثم التطور الذي يرهنه غليون ـ حسب الباحث ـ في الحرية باعتبارها معيارا للحكم على التطور التاريخي والتمييز بين الأنظمة الاجتماعية ويقول: «ان ذلك يرتبط بمدى تحرير الطاقات والملكات والمواهب الاجتماعية الفردية التي يسمح بها نظام معين بالنظر الى نظام آخر» ويستطرد الطويل قائلا: انه تبعا لذلك فان التطور التاريخي لا يصبح تقدما إلا بتحقيقه امكانية أكبر للتحرر.

ثم يستعرض المؤلف موقف غليون من العصرية والمعاصرة ويلخصه في قول غليون: «لقد أصبحت ثقافتنا عصرية، أي قلدت في فروعها ومنتجاتها الثقافة السائدة، لكنها وربما لهذا السبب بالذات لم تصبح معاصرة»، أما مفهوم غليون حول الرجعية والتقدمية لا سيما في الاشتقاقين اللذين تم صكهما حول الحداثة التقدمية التي وقف خلفها التيار الاشتراكي بكافة طوائفه والحداثة الرجعية التي وقف خلفها رجال البرجوازية الغربية، ويرى غليون أن هذا التقسيم لا يحمل أي دلالة تاريخية موضوعية فعلية وانما ـ حسب الطويل ـ كان عامل تسريع لحركة الاندماج بالغرب والاقتداء به وينقل الباحث عن غليون قوله «باسم التقدمية وتحت مظهر العداء الشديد للرأسمالية، وبالتالي باسم الجماهير الشعبية يمكن نقل الغرب كما هو دون خوف، أي اتباع سياسة تحديثية عمياء لا تتورع عن القيام بتصفية كلية للتراث الماضي، وعن التدمير العنيف للبنيات والهياكل والقيم المادية والروحية المحلية! وحول مفهوم التجديد يرى الباحث انه موضوع شديد الصلة لدى غليون بالتجديد الديني وهو ما يعني ـ حسب غليون ـ «إعادة النظر في القواعد، والقيم والأفكار التي تقوم عليها السياسة في العالم العربي»، ويقول الباحث عبدالسلام الطويل أن غليون في هذا المنحى اعتبر ان المدخل الاساسي لفهم السياسة، لا بما هي نظرية وانما بما هي ممارسة في الحياة الاجتماعية، هو مدخل الاسلام باعتباره أولا: عقيدة مؤثرة في سلوك الناس وباعتباره ثانيا: مؤسسة تاريخية تضبط وتنظم وتعيد انتاج جزء كبير من علاقات الأفراد والجماعات. ثم ينتقل الباحث للبحث تفصيليا في أهم محددات الحداثة عند برهان غليون ويتناول عبر ذلك مفهومه للعقل والأخلاق والثقافة والهوية، والعولمة والرأسمالية وفلسفة التغيير الاجتماعي، ثم يتناول إشكالية العلاقة بين الحداثة والتراث ونقد غليون لموقف الفكر العربي المعاصر من التراث ثم في الفصل الثاني يتناول إشكالية العلاقة بين الديني والسياسي عند غليون وكذلك مأزق العلمانية والبديل الديمقراطي، والموقف من الحركة الاسلامية وفي الفصل الثالث يتناول عبدالسلام الطويل إشكالية الدولة عند غليون وهو الفصل الذي يستحق التوقف مليا، حيث انه يمثل النتيجة التي آل اليها مشروع الحداثة العربية شاخصة امام الابصار لدرجة تفقأ العين الكليلة، أفعل ذلك لقناعة خاصة بحاجتنا الماسة الى وضع أيدينا على مثل هذه الأوجاع مع التسليم باهمية المقدمات النظرية التي حملت مشاريع مهمة من نوعية مشروع غليون نفسه.

أزمة الدولة العربية بين الاستبداد والفساد

ومنذ البداية يشير الباحث الى التأكيد الدائم من غليون على أن الاستبداد ظل ظاهرة ملازمة لطبيعة الدولة العربية وينقل عنه قوله: «تشكل ظواهر انعدام آليات التداول الطبيعي للسلطة، واحتكار مراكز القيادة من قبل نخب لا تتمتع في اغلب الأحيان، بالحد الأدنى من الاخلاق المدنية والكفاءة المهنية، وغياب الحريات العامة، وتفاقم الانتهاكات اليومية لحقوق الانسان وفرض المراقبة السياسية والفكرية على الافراد وهيمنة السلطة الشخصية من النمط الأبوي والخلط المتزايد والفادح بين الدولة والحزب الواحد والقبيلة أو الطائفة وتعميم اجراءات العسف السياسي والقانوني والتمييز المكشوف بين المواطنين والقمع والعقاب الجماعيين كل هذه الظواهر التي لا يمكن ان تخفى على عين أي مراقب، تشكل الحقيقة اليومية للسلطة في المجتمعات العربية، وتعكس القطيعة التي لا تكف عن التفاقم بين الدولة والمجتمع» هكذا يعبر بوضوح برهان غليون.

ويرى الباحث هنا تعقيبا على غليون أن دولة من هذا النوع عقيدتها الوحيدة هي الايمان بنفسها، وهو ـ في رأيه ـ ما يفسر شبه الاجماع من مختلف المدارس الفكرية على الطبيعة التسلطية والاستبدادية للدولة العربية، ويشير الباحث الى أن غليون لا يربط بين الاستبداد وبين الدولة المركزية أو غير المركزية ولكن ذلك ينتج ـ بالأساس ـ من الرغبة في بناء نظام سياسي يمنع القوى الاجتماعية النازعة الى الاندماج في الدولة من ممارسة ضغطها وحريتها، وهو ما يعني تحولها الى دول ديكتاتورية تعسفية ـ حسب الطويل ـ تلغي التعدد والاختلاف ولا تؤمن به كما أنها لا تطبقه. ويشير الباحث الى الشقة الواسعة التي تفصل بين رؤى برهان غليون لبنية الدولة العربية ورؤى عدد من المفكرين مثل محمد جابر الانصاري وحسن حنفي، ومحمد عابد الجابري وهشام جعيط ومحمد أركون، وتلك الشقة قائمة على رفض غليون الربط بين واقع الدولة العربية وبين تراثها وبنيتها ومخيالها الاجتماعي وقاعها الجيوسياسي، وهو ما يطلق عليه الباحث خطأً منهجيا بنيويا لدى غليون يفترض دائما وجود علاقة تناف وتنابذ وقطيعة بين البعد التاريخي الأنثرُوبولوجي للظواهر الاجتماعية والسياسية، ويحاول الباحث تقديم عدد من المقاربات بين هؤلاء المفكرين الذين ذكرهم وبين غليون، ثم يشير الى ان الرجل لم يعبأ كثيرا بالمناهج التي عول عليها وكذلك المناهج التي نبذها واختار ان يذهب بعيدا في تناوله لأزمة الدولة الوطنية العربية حيث يرى ـ حسب الطويل ـ ان الدولة بدلا من أن تمثل المركز الرئيسي لانضاج القرارات وتجميعها واعادة نشرها وتوزيعها على مجموع القوى الاجتماعية الفاعلة، وبدل أن تقوم بدور العامل الرئيسي على تجاوز التناقضات الاجتماعية أيضا، تشكل بالعكس من ذلك من خلال قراراتها وسياساتها، طرفا في النزاع الاجتماعي أو انعكاسا مباشرا لطرف محلي أو أجنبي! ثم يرصد عبدالسلام الطويل على نحو تفصيلي أول عناصر ضعف الدولة العربية ويرى أن المصدر الأول لهذا الضعف الاخلاقي والسياسي يرجع الى طبيعتها اللا وطنية ويتمثل ذلك ـ حسب قوله ـ في عجزها عن الاستجابة الفعالة للحاجات والمطالب الاجتماعية، وهذا الضعف هو الذي يفسر ميلها الشديد والمستمر، من منطلق التعويض وايجاد التوازن، الى تطوير القوة المسلحة العسكرية التي يتم توظيفها في اللعبة السياسية.

وينتقل الباحث الى أزمة المشروعية في الدولة العربية ويشير الى موقف برهان غليون من مفهوم المشروعية الذي يتناول عبره تلك الكيانات الهشة التي تسمى دولا، بينما وجودها يعاني من أزمة تحقق حادة، وهي دولة يراها تقوم على العصبيات ولا يمكنها أن تنتج أي تراكم معرفي يخلق منظومة من القيم والتقاليد.

ويشير الباحث إلى أن غليون لا يحصر أزمة الدولة العربية في طبيعتها شبه المطلقة فحسب، بل في تمحور السلطة ـ حسب الطويل ـ في خدمة مصالح شديدة الخصوصية والضيق، الأمر الذي جعل من استبداد هذه السلطة استبدادا مضاعفا، كما يتطرق الباحث أيضا الى الطابع القطري للدولة العربية الذي جعل الافراد يتعاملون معها باعتبارها هيكلا إداريا وليس سياسيا.

بقي القول أن كتاب «الدولة العربية في مهب الريح» صدر عن مركز القاهرة لدراسات حقوق الانسان «سلسلة أطروحات جامعية» للباحث المغربي عبدالسلام الطويل بمقدمة ضافية للدكتورة نيفين مسعر، ويقع الكتاب في حوالي 485 صفحة من القطع الكبير.

اصدارات أردنية

«جولات في النقد الأدبي» لعبدالرحمن ياغي

عمان ـ «القدس العربي»:

ضمن سلسلة كتاب الشهر صدر عن وزارة الثقافة كتاب الناقد د. عبد الرحمن ياغي «جولات في النقد الأدبي» وهو يحتوي على مجموعة من المقالات النظرية أو التطبيقية التي تتناول الإبداع والتلقي والمدارس الأدبية والمصطلحات النقدية وبعض الإبداعات العربية والمحلية، وقد جاء الكتاب في 315 صفحة وتألفت أقسامه من الموضوعات التالية: مؤشرات في ضوء ما حدث، العلاقة الجدلية بين النقد والإبداع، التفسير النفسي والتفسير الإبداعي، العلاقة بين المبدع وواقعه الاجتماعي، أبعاد العملية الإبداعية، الإنسان وحركة الزمان، موقف من بعض المدارس الأدبية، حول مواقف الأدباء صمودا وانزلاقا، عودة للعلاقة بين الإبداع الأدبي والواقع الاجتماعي، في الفروق الدقيقة بين الأجناس الأدبية، التمادي في خطف المصطلحات الأدبية، عودة إلى الحديث عن قصيدة النثر، حول أزمة النقد الأدبي في الأردن، الرواية والواقعية النقدية، النقد الأدبي والنزعة الإنسانية، دور المثقف وحركة الجماهير..الخ.

ومن الواضح أن هذا الكتاب عبارة عن مقالات أو دراسات نشرها ياغي أو قدمها في مؤتمرات خلال فترات متقطعة وجمعها معا، يقول في إحدى هذه المقاربات:

«صحيح أن الأدب بعد أن يصدر عن صاحبه يصبح كيانا مستقلا، قائما بذاته يحمل موقعه وموقفه وزاوية رؤيته ومادته اللغوية، وفكره وأصوله الجمالية الخاصة به. لكن البحث في الأدب عن حياة المؤلف أو نفسيته أو عن أيدولوجيا المؤلف أو عن أحكام البنية اللغوية الأدبية يمكن أن تكشف جميعها مجموعة أبعاد لا تكشفها واحدة بمفردها، وهي تشكل مكاسب في توسيع النظر للأثر الأدبي وتعميقه ولعلها جميعا تقربنا من الاتصال الحميم بالأثر ونبض الأثر، وأخشى أن يمتد التنافر والتنابذ والخصام بين أصحاب هذه المحاولات فينصرف الناس ثانية عن الاهتمام بالأدب نفسه ويعودون إلى ما في الأدب من قدرة على خدمة الحدث الاجتماعي والابتعاد عن الالتصاق بالنصوص الأدبية وتوجيه الدراسات وجهات أخرى أوفى بالحاجة وأنفع».

صخب ونساء وكاتب مغمور: رواية لعلي بدر

■ عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر في عمان وبيروت صدرت رواية «صخب ونساء وكاتب مغمور» للروائي العراقي المقيم في عمان علي بدر، وهي الرواية الرابعة له بعد أن كان أصدر من قبل: «بابا سارتر» 2001، «شتاء العائلة» 2002، «الوليمة العارية» 2005، وقد حاز على مجموعة من الجوائز العربية المهمة هي: جائزة الدولة للآداب في بغداد، جائزة أبو القاسم الشابي للرواية في تونس، جائزة الإبداع الروائي العربي في الإمارات العربية المتحدة، كما يستعد حاليا لإصدار رواية عن عالم إدراود سعيد، وطبعة جديدة من روايته المعروفة «بابا سارتر» عن المؤسسة العربية.

تضمن الغلاف الأخير للرواية تعريفا بها يقول: «لم صاخب من النساء والفنانين والشعراء المزيفين الذين يجتمعون في استوديو صغير في بغداد، حيث تدور أحداث حياة الكاتب المغمور، الذي يحلم بكتابة رواية يحصل من خلالها على المال والجوائز والنساء، ونتعرف من خلال هذا المكان على سعاد التركمانية ممثلة الإعلانات الشهيرة وتحولاتها من عشيقة لأحد الضباط في حكومة عبدالكريم قاسم إلى عاهرة في الفنادق الرخيصة، وهناك وليد الشاعر الفاشل الذي يعيش على حساب الآخرين بمظهره الارستقراطي الزائف، وتمارى بفضائحيتها وحركاتها الإيحائية، وعباس الذي يتعرف على عيشة المغربية ويعيش معها قصة حب صاخبة عبر الرسائل. إنها رواية تظهر التعدد المذهل للإثنيات واللغات التي تختلط في شارع واحد، وعلى خلفية حياة الناس نشهد ثورات الشيوعيين والقوميين والانقلابات والسجون وصراع الفئات الاجتماعية فيما بينها».

قضايا ومجامر: أشعار ثريا ملحس 1946 ـ 1956

■ مجلد لقصائد الشاعرة الأردنية الرائدة ثريا ملحس صدر مؤخرا عن دار البشير للنشر والتوزيع في عمان، حيث ضمنته المرحلة الأولى من كتاباتها الشعرية ما بين الفترة 1946 ـ 1956، وقد جاءت الطبعة الجديدة بترتيب جديد وتحت عنوان «قضايا ومجامر» في نحو أربعمئة صفحة، وكتبت د. ملحس مقدمة له تقول فيها «كنت أجمع شعري من قصائد النثر، وأنتظر الفرصة التي تسمح لي بنشرها في مراحل ثلاث، من سنة 1946 إلى 1968 م، بعنوان «النشيد التائه» أول ديوان ينشر لي في بيروت، ثم اتبعتها باختيار أيضا بعض قصائدي ونشرتها في بيروت سنة 1952 بعنوان «قربان» ولا أغالي إن ذكرت أن إخراج الديوان كان أول إخراج مثله في العالم العربي برسم واخراج النحاتة اللبنانية سلوى روضة شقير ثم توقفت عن النشر لكي أصنف المجموعات كلها في مراحل ثلاث لم تنشر بعد، فابتدأت بالمرحلة الثالثة ما بين سنة 1961 وسنة 1967 بعنوان «محاجر في الكهوف» وأتبعتها بالمرحلة الثانية ما بين سنة 1952 ـ 1958 ونشرتها في بيروت سنة 1968 بعنوان «خبأنا الصواريخ في الهياكل»، وأتبعتها بالمرحلة الأولى ما بين 1946ـ 1956 ونشرتها ببيروت سنة 1970 بعنوان «قضايا ومجامر»، وارتأيت أن أعود إلى المرحلة الأولى في قضايا ومجامر التي جعلتها في أربعة عنوانات، وهي أناشيد ثلاثة: هيكل، مجامر، قضايا، حيث رتبت القصائد متتابعة في فقرات كل فقرة مستقلة عن الأخرى، وحين عدت إلى ديواني هذا قررت أن أعود بترتيب قصائد النشيد التائه السابق وما تبعه، لكي أساهم في تجربتي الشعرية المبكرة منذ 1946 حينما كنت طالبة في الجامعة محافظة على عنواناتها بلا تبديل، قصدا إلى أن أضيف الديوان «قضايا ومجامر» إلى تجربتي الشعرية التي شاء بعضهم أن يسميها في ما بعد «قصيدة النثر».

فقصيدة النثر اليوم اصبحت حقيقة ثابتة لها حيز في تطور الشعر العربي شاء بعض المعارضين أم لم يشاؤوا، وقد انطلق من لبنان ولعل الناقد انسي الحاج اللبناني وهو شاعر وناقد أول من ترجم المصطلح إلى العربية ونقله لينشر عبر العالم العربي كله، بعد أن كان يتراوح هذا النمط في لبنان منذ الأربعينيات من القرن الماضي في مسمياته ما بين الشعر النثري والنثر الشعري والشعر الطليق أو الطلق والشعر المرسل».

إكس: رواية فرنسية بترجمة أردنية

■ عن دار أزمنة للنشر والتوزيع في عمان وبدعم من وزارة الخارجية الفرنسية والمركز الثقافي الفرنسي في عمان صدرت رواية «إكس» للروائي الفرنسي كريستيان فيلا وبترجمة مي عبدالكريم محمود.

ولد المؤلف في عام 1950 في سوزاي مونورنسي من اقليم الفال دواز وبدأ الكتابة منذ عام 1973 ونشر عشرات القصص البوليسية وقصص الخيال العلمي القصيرة في مختلف المجلات، نجحت روايته الأولى «دم المستقبل» في أن تصبح الكتاب المعبود لحركة البانكس في عام 1977، كتب روايتين بوليسيتين هما «نوبل الأسود» و«همبرغرات وصدف» ثم نشر ثلاث روايات وهي «دبوس الدم»، «المحيط المتوحش»، «الموت الأسود»، كما عمل كريستيان فيلا كمحرر في الدوريات «فكشن، ليبراسيون، فاساد، زولو وغيرها وهو اليوم يوزع وقته بين كتابة الروايات وكتابة سيناريوهات للتلفزيون».

من الاستهلال للرواية نقرأ:

المكان: مركز التجارب النووية في المحيط الهادىء، في جزيرة موروروا المرجانية التابعة لبولونيزيا الفرنسية: في صبيحة يوم من أيام تشرين الأول (اكتوبر) من عام 1977 كانت منافذ ميدان الرمي تعج بحركة نشطة، مع انه لم يكن مقررا إجراء تجربة في الحال، إذن فإن النشاط الذي كان يحرك الحشد البشري عند الجوانب الأربعة للجزيرة كان مرده أمر آخر، ففي الليلة السابقة قبل الساعة الثانية بقليل، تم إعلان حالة الطوارىء القصوى في القاعدة، وفي الحال تم استنفار جميع الكادر التقني والعلمي والعسكري، وإبقاؤهم في مراكزهم بيد أن الذي كان على علم بما حصل حقيقة هم نفر قليل، منهم، وكان أول من عاين الشيء الغريب هم الفنيون الذين يرتدون الملابس الواقية من الأسلحة النووية والبيولوجية والكيماوية أثناء قيامهم بدورياتهم على منافذ السطح، حيث كانت منطقة استكشافهم لم تزل إلى اليوم السابق ملوثة للغاية، ومحرمة على العاملين غير المزودين بالأطقم الخاصة وكانت عداداتهم الجيجر تشير في صبيحة ذلك اليوم إلى عدم وجود أي نشاط إشعاعي تقريبا، أو كما قال وزير الدفاع متفاخرا بعد مرور ثمانية عشر عاما: كانت نسبة النشاط أقل بكثير مما يسجل عادة في شوارع باريس «وكان هذا الوزير يجهل كل شيء عن موضوع حديثنا هنا...».

قصيدة بسيطة كالحرب
حربُ صعبة كالقصيدة

فواز قادري *

أساعة معطلة في القيامة بيروت
تك تك تك
تنبض والجنوب لحدٌ لمن؟
اجاب المقاومون
بالطريقة التي يفهم الغزاة.
ففي الحرب
لا يكترث الموتى عادة
لمرور الطائرات اللطيفة
تنزعج الحياة
تكزّ على اسنانها
ولا تحرّك في قلب الحرب شيئا

***

بيروت هشة كقلب
فكيف سيعضّ الموتى
على اصابع الاحياء
لتستفيق من رقادها
ساحات بيروت،
دراويشها
والساحل على بعد حرب
من صراخ بحر يستغيث
على مسافة انفجارين يتزاوجان
وينجبان آلاف الشظايا

***

قبل ان تغير الطائرات للمرة الالف
كيف سيخبئ الاطفال احلامهم في الظلّ
العابهم في زاوية لا تراها
قبل ان تذهب ارواحهم
الى نزهة في الهشيم
وقبل ان تلعب ريح وسخة
بجدران البيوت
باعمدة الكهرباء
وبالجسور والارصفة.

***

بيروت هشة كقلب
لا مزيد من المراثي
للطفل الذي كتب في دفتره المدرسي:
مللتَ دور الضحية
لا لون للسماء في عيوني
لا صفاء للبحر والالعاب
لا طعم للبرتقال
لا غواية للخبز
في هذا الموت السفيه
ابحث عن اقصر لوعة
من صدر اميّ
الى حليب البلاد.

***

سأعكر دم القصيدة
بادخال اسم امريكا الكريه
في ابياتها
وسأغافلها
لتكون اسرائيل حاضرة
كما يليق بسفاح
وببساطة سأكتب:
هذه الحكومات خدم واكتفي
وسافترض ان الطائرات
غربان الجحيم
ولكن كيف سافترض
ان بيروت وردة المطر الاخيرة؟

***

في الجنوب
لا يلعب الاطفال في الشوارع
تختفي الشوارع مجبرة
تتكوّر على نفسها
ملتقطة آخر الانفاس
لا تلعب الطيور في الهواء
يلعب هواء اسود
بريشها
وببقايا الاعشاش
لا تلعب الحافلات بالمسافة كعادتها
تلعب الطائرات بها
تعضها من اقدامها الحافية
لا يكتشف الهاربون من الحرب الفارق
بين الموت والحياة
حين تبدل الحدود امكنها
في القصف الذي
يحيل كامل الارض
الى جثة هامدة.

***

الحرب بسيطة كالقصيدة
وسهلة كالموت
الحرب هي الرسائل المريضة
التي يرسلها
قاتل الى قتلاه المحتملين
ويرقص للدم
وهو يغيّر لونه
على الحجارة والتراب

ولان القصيدة
عاجزة عن خدش كرامة الحرب
ابارك المسامير التي
ابقت صور عائلة على الجدار

***

كيف سيصف الشاعر الموت
أكما يحسّ به
حين لا يراه ؟
وهل سيقوى
ان يعيد حجرا شاردا
الى مكانه القديم
ان يعيد المياه الى ارض
مثقوبة بالرصاص
او ان يحاول جدولة القتلى
على ارومة الحياة
وكيف سيقبض على الحرب متلبسة
بلغة عادية تماما
دون الوقوع في احابيل البلاغة
وكيف يسمي الطفل طفلا
حين يحصي اعضاءه الناقصة
وكيف يجمّع
كل هذا الذي تناثر
في مقطعين قصيرين
لنستدلّ أي موت يعني
اموت حداثيّ
ام موت قديم
بمخالب واضلاف
لنتصالح مع نوايانا الجميلة
في مقبرة هذه الحرب
حيث لم يبق شيء
على حاله
حتى القاتل بامكانه
دون مخاتلة
ان يتقدم الصفوف في العزاء.

***

تتشابه القصائد التي تكتب عن الحرب
ولا يتشابه الموت
يتشابه الموت احيانا
وتختلف القصائد
على سبيل المثال:
تتشاجر المفردات
على وصف طفل ضائع في البكاء
على وصف امرأة
بكامل احلامها
في لحظة الموت
في وصف بيروت
كما يليق بجنازة
تتشابه القصائد
ويختلف الشعراء
ايمزح احدهم
حين يكتب قصيدة حب
ليسدد طعنة الى الحرب
ويراوغ آخر
لادخال السياسة
من ثقوبها الضيقة
ينجح او يفشل
هذا متوقف
على قوة ضخ الدم في القصيدة
على الزاوية التي يرى الموت منهاجماليا
قدرته على تجميع العناصر المتباعدة
في جملة
في سطر
في مقطع
دون التباهي
بصورها النازفة.

***

بسيط هو الموت
والقصيدة لا تحتاج
للكثير من المهارة
لتدخل الحرب
في شراكها
بسيطة
هي الحرب
لا
تحتاج ان
يسبح
الاطفال
في
غبارها
الناري
لنعرفها
كما لا تحتاج الطائرات
الى ادلاء

لتوزع هداياها
الحميمة
بسيط هو الموت
ولا يتكلف الكثير
ليقتنص خمسين روحا
في ضربة واحدة

***

لن اكتب في قصيدة الحرب البسيطة:
تساقط الاطفال كالنجوم الصغيرة
لان المباني لم تقرر من امرها شيئا
حين تهاوت
على اجسادهم الناعمة
والحجارة لم تضمر أي عداء
حين افترشت لحمهم
كفراش وثير
سهل هو الموت في الجنوب
كطائر حط بسلام
على شجرة آمنة
سهلة هي الحياة
ولكن
في اماكن اخرى من العالم.

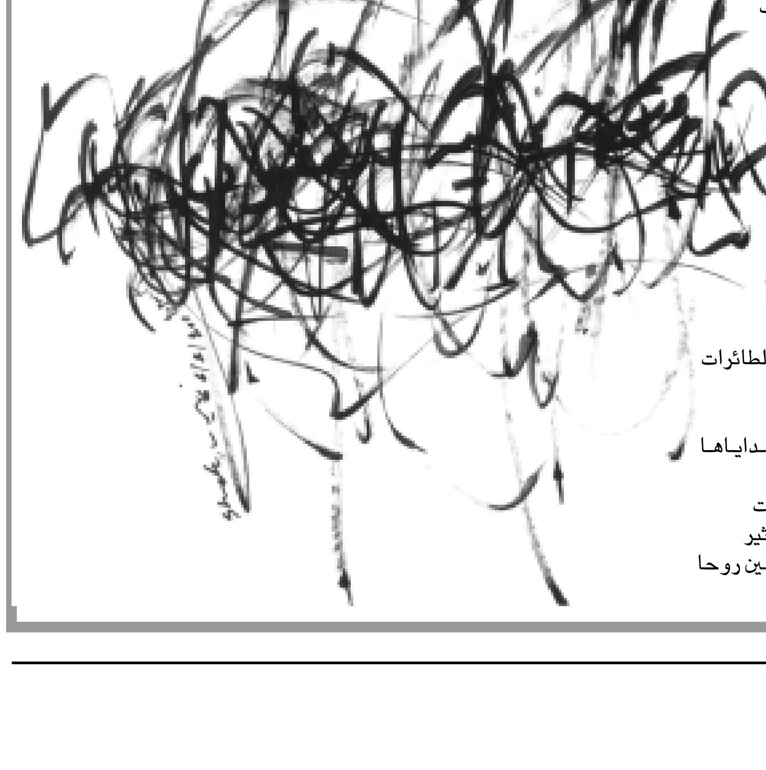

----

* شاعر من سورية يقيم في المانيا